الرهانات التعبيرية والجمالية لروايات الخيال العلمي العربية
نحو مدخل للمساهمة في تحقيق الاستدامة الثقافية

د. جمال محمد عطا

أستاذ النقد الأدبي المساعد بكلية الآداب والعلوم. جامعة الملك خالد

المستخلص

يسعى البحث للوقوف على أبرز الطاقات التعبيرية والجمالية لرواية الخيال العلمي، بهدف الوقوف على الدور الذي يمكن أن تقوم به روايات الخيال العلمي في بناء وعي الإنسان، و في مواجهة تحديات الحاضر والمستقبل. وقد اعتمد الباحث على المنهج الوصفي التحليلي. توصل الباحث إلى عدة نتائج منها: أن روايات الخيال العلمي قد تمتلك مؤهلات تعبيرية وجمالية تؤهلها للمساهمة في النهوض بالإنسان وبوعيه روايات الخيال العلمي بأشكالها وتقنياتها وأنماطها المختلفة(الدوستوبيا- اليوتوبيا) قادرة على تقديم عوالم بديلة تسهم في التنمية المستدامة.

الكلمات المفتاحية: الحقل الثقافي، روايات الخيال العلمي، الاستدامة الثقافية.

Abstract

The study seeks to highlight the most prominent aesthetic and expressive capacities of scientific novel, aiming to pinpoint the role which can be performed by these novels in building the awareness of the human being, and confronting the challenges of the present and the future. The researcher depended on the analytical method in the study. He reached some conclusions. stating that scientific novels may own aesthetic and expressive qualifications that enable them to contribute to developing man and their awareness. These novels with their different forms, techniques and types (utopia and dystopia) are able to introduce alternative worlds contribute to sustainability.

Keywords: Cultural field, Scientific novels, Cultural sustainability

تمهيد:

ما الذي يمكن أن تقوم به رواية، أو حتى مجموعة من الروايات تنتمي للخيال العلمي في تحقيق أهداف التنمية المستدامة لأمة من الأمم؟ تلك التنمية التي تستهدف في المقام الأول تحسين ظروف العيش، واستغلال الموارد البشرية والطبيعية المتاحة، لتحقيق أكبر قدر من النمو الاقتصادي دون المساس بالتوازن الطبيعي للبيئة، ودون الجور على حقوق الأجيال المقبلة؟ وكيف لرواية، أو مجموعة روايات من الخيال العلمي أن تساهم في صناعة ثقافة متينة، تبني الإنسان معرفيًا ووجدانيا، ثقافة تكفل لأفرادها القدرة على التعامل مع معطيات الواقع، وفي الوقت نفسه مواجهة مخاطر المستقبل، والتطور التكنولوجي الذي يبتلع الإنسان، ويقضي على مشاعره وأحاسيسه ؟ كيف للإبداع عموما، وروايات الخيال العلمي أن تساهم في حل قضايا اجتماعية مثل الفقر، والتطرف، غياب الأمل في الحاضر والمستقبل؟

تكشف أدبيات بيير بورديو، وألتوسير، أن للثقافة وجهها المشرق والفاعل في المجتمع، المتمثل في كونها قوة مادية قادرة على التغيير،أو بوصفها ممارسة ونشاطًا حرًا، قادرًا على الكشف والتحرر من التقليدي، والنمطي الذي يسعى لقولبة الإنسان. فعلى عكس ما كان سائدًا في الفلسفة الوضعية، و الأدبيات الماركسية، التي كانت ترى في الثقافة بناء فوقيًا تابعا، تكشف لنا أدبيات بورديو، ولوي ألتوسير، والمدرسة النقدية متمثلة في مدرسة فرانكفورت عن مكانة الثقافة ودورها، متى تهيأ لها ذلك. بفضل سوسيولوجية بيربورديو ومفاهيمه(الرأسمال الرمزي، الرأسمال الاجتماعي) أصبحت الثقافة موردًا من موارد التنمية، تمنح الفاعلين قوة داخل الفضاء الاجتماعي، الذي هو مناط التنمية المستدامة.

إن أدبيات بورديو تعلمنا أن الظاهرة الإبداعية هي ظاهرة اجتماعية في المقام الأول، وخطاب اجتماعي له القدرة على إحداث التغيير في المجتمع، بوصفه قوة مادية في إعادة تشكيل الواقع، فلم يعد النظر إلى الأعمال الإبداعية (رواية- قصة- شعر، إلخ) على أنها انعكاس للواقع، أو على أنها مضامين، يطرحها المبدع ويمتصها القارئ دون أي فاعلية أو تشارك. فالإبداع بوجه عام قادر على مساءلة كل ما هو أيديولوجي يعيق حركة الحياة. كونه حقلا مستقلا، قادرا على المساهمة في ثقافة تسهم هي بدورها في التنمية المستدامة. إن الثورات الرمزية، وعلى رأسها الإبداع تقلب أبنية التصور في الأذهان، والأذواق والانفعالات. فالتمثيل الأدبي هو إحداث تغيير بالكلمات، وكشف المستور وحفز على الوجود (بورديو، 2013م، 16).

يسعى هذا البحث إلى الوقوف على الدور الذي يمكن أن تقوم به روايات الخيال العلمي في تحقيق الاستدامة الثقافية من ناحية، وتحقيق أهداف التنمية المستدامة. وذلك بالوقوف على الإمكانات الفنية والطاقات الإبداعية، والتعبيرية لجنس رواية الخيال العلمي. كما لا ننسى دور القارئ/ المتلقي -في التعامل مع روايات الخيال العلمي بوصفه مكملاً للعملية الإبداعية، ومكملاً للإنتاجية الأدبية. مستفيدين في ذلك مما

كُتِبَ من دراسات وبحوث حول أدب الخيال العلمي، وروايات الخيال العلمي تحديدًا.

مشكلة الدراسة:

تواجه البحث عدة مشكلات لعل من أهمها:

1/ افتقار أغلب الدراسات التي تناولت رواية الخيال العلمي إلى آلية ومنهجية تكشف عن دورها داخل الحقل الثقافي والاجتماعي. فدور الفنون والآداب - ومن ضمنها روايات الخيال العلمي- ليس غائبًا، ولا يمكن التشكيك فيه. إنما الغائب: هو آلية الكشف عن هذا الدور، وكذلك المدخل النقدي المناسب للتعامل مع النصوص التخييلية، الذي يكشف عن المؤهلات،التي يمكن أن تؤهل جنسًا أدبيًا كروايات الخيال العلمي في بناء الإنسان وإثراء حياته، وبناء ثقافة حقيقية ومستدامة، تساعده في تحقيق النهوض بالذات الإنسانية، والمجتمع حاضرا ومستقبلاً.

2/ المشكلة الثانية تتولد من المشكلة الأولى، إننا بإزاء جنس أدبي(رواية الخيال العلمي) إشكالي، في تعريفه، وحدوده، وتحديد سماته الفنية الفارقة عن غيره. فما بين مادح ومتحمس للفن، ومؤمن بدوره في بناء المجتمع، كونه يتبنى رؤية استشرافية للمستقبل، وبين قادح فيه يصنفه خارج الأدب، أو في أحسن الأحوال يصفه بأنه جنس أدبي، يفتقر إلى جماليات الرواية وأسلوبيتها.

3/ المشكلة الثالثة (مؤشرات القياس) صعوبة القياس. إذ إننا بصدد إنتاج فني، صناعة ثقافية لا تنعكس مؤشراتها في جوانب مادية فقط، وإنما تتضمن أبعادًا معنوية غير ملموسة يصعب قياسها. فكما يقول الدكتور أحمد زايد" الحديث عن الاستدامة في التنمية بعامة ينعكس في مؤشرات واضحة يمكن قياسها، فبإمكاننا قياس معدلات الفقر، والحرمان والتعليم، والتلوث، والجريمة، والصحة، والمساواة بين الجنسين. ولكن عندما ننتقل إلى الحقل الثقافي فإننا نرى أن المسألة تزداد تعقيدًا"(زايد، جريدة الأهرام،2019م) وبالإضافة إلى هذه المشكلات الرئيسة، هناك بعض المشكلات التي يواجهها البحث، منها تعريف الاستدامة الثقافية، وكيفية تحققها، وعلاقة هذا التحقق بالتنمية المستدامة، ويأمل البحث التغلب على المشكلات. من خلال منهجيته، والخطوات الإجرائية التي يتبعها في البحث.

أهداف الدراسة:

- إبراز دور الفن والأدب والثقافة في التنمية المستدامة، ورفع اقتصاد الدول.
- الكشف عن الإمكانات الفنية التي تؤهل روايات الخيال العلمي لتحقيق الاستدامة الثقافية.

- إزالة المغالطات حول جدوى الفعل لثقافي اجتماعيا وسياسيًا.لا سيما الخطاب الإبداعي.
- بيان قيمة أدب الخيال العلمي، ومنزلته.

تحاول الدراسة أن تجيب عن مجموعة من التساؤلات، لعل من أهمها:

ما المقصود بالاستدامة الثقافية ؟ وما هي وسائل تحققها ؟ كيف يمكن لروايات الخيال العلمي المساهمة في بناء الإنسان ؟ ما المؤهلات التي تؤهل روايات الخيال العلمي لتحقيق الاستدامة الثقافية، والنهوض بالفرد،والمجتمع حاضرًا، ومستقبلاً؟

الإطار النظري و الدراسات السابقة:

تعددت الدراسات التي تناولت روايات الخيال العلمي، أو أدب الخيال العلمي ما بين الكتب المستقلة أو المقالات والدراسات النقدية، لاسيما في الفترة الأخيرة .وقد تنوعت هذه الدراسات ما بين مقالات، تُعرّف بأدب الخيال العلمي، ونشأته غربيا وعربيا، وأبرز كُتّابه، وأهم موضوعات الخيال العلمي، وعلاقته بالمستقبل، والفرق بينه وبين الأجناس الأخرى كالغرائبي، العجائبي، الأسطوري، الواقعية السحرية،أدب الديستوبيا، أدب اليوتوبيا (الأحمر، 2019م). وبالإضافة إلى هذه الدراسات التي ركزت على الجوانب النظرية، هناك العديد من الدراسات التطبيقية التي عمدت إلى دراسة رواية أو مجموعة من الروايات. ركز البعض على المتخيل المكاني، أو الفضاء الزماني، أو البناء الفني بصفة عامة. ولا شك أن البحث سيفيد من هذه الدراسات. غير أن الباحث وفي حدود اطلاعه وعلمه لم يجد دراسة واحدة تتناول الرهانات التعبيرية والجمالية لروايات الخيال العلمي في العالم العربي في تحقيق الاستدامة الثقافية.

سنحاول في هذا البحث أن نعالج موضوع الدراسة من خلال المباحث التالية:

المبحث الأول: الحقل الثقافي بين الاستدامة الثقافية والتنمية المستدامة.

المبحث الثاني:الأدب بين إنتاج المعرفة و تشكيل الهوية.

المبحث الثالث: رو اية الخيال العلمي والتخييل.

المبحث الر ابع: جماليات التشكيل في رو ايات الخيال العلمي.

المبحث الأول:

الحقل الثقافي بين الاستدامة الثقافية والتنمية المستدامة

إذا كان الهدف الأساسي، والغاية الأسمى من التنمية هو بناء الإنسان والنهوض به حاضرا ومستقبلا، فإن المدخل الحقيقي لأي تنمية شاملة، ومستدامة لا بد وأن يكون من باب الثقافة. فالثقافة في أي بلد من البلدان تعدُّ المحرك الأساسي للتنمية المستدامة، كونها تهتم بأساس التنمية ومحورها (الإنسان)، الذي هو غاية التنمية، ووسيلتها لأي تقدم ونهوض. وقد التفتت الأمم المتحدة، وكافة الدول مؤخرًا إلى أهمية الثقافة(المادية/غير المادية)، والتنوع الثقافي (إعلان اليونسكو، 2001م).

وبعد أن كانت التنمية المستدامة تقوم على ثلاث ركائز أو أبعاد أضيف لها البعد الثقافي باعتباره متممًا لعملية التنمية، الثقافة بمكوناتها التي هي حجر الزاوية الذي أهمله وأغفله البناؤون، و هي الاقتصاد غير المُسْتَغَلَ -بالرغم من أهميته ودوره-في التنمية المستدامة.

تشير الدراسات الاجتماعية والثقافية إلى أهمية البعد الثقافي في التنمية المستدامة. وأي عملية تنمية لن تقوم إلا بالتنمية الثقافية، فلا تنمية بدون ثقافة، وليس بخافٍ أن تخلف الدول ناتج في الأساس عن تخلف ثقافتها، أو غياب دورها، ومن أهداف التنمية الثقافية أن تنحو بالإنسان نحو الكيف وليس الكم (ابن نبي، 984م، 116).

إن هدف التنمية البشرية المستدامة ليس مجرد زيادة الإنتاج، بل هو تمكين الناس من توسيع نطاق خياراتهم ليعيشوا حياة أطول وأفضل، وليتجنبوا الأمراض، وليملكوا المفاتيح لمخزون العالم من المعرفة إلى آخر ما هنالك. وهكذا، تصبح التنمية عملية تطوير القدرات لا عملية تعظيم المنفعة أو الرفاهية الاقتصادية كما ينظر إليها اليوم. فالأساس في التنمية البشرية المستدامة ليس الرفاهية المادية فحسب، بل الارتفاع بالمستوى الثقافي للناس بما يسمح لهم أن يعيشوا حياة أكثر امتلاء، ويمارسوا مواهبهم، ويرتقوا بقدراتهم. ويتضح هنا مثلا أن التعليم والثقافة يحققان فوائد معنوية واجتماعية، تتجاوز بكثير فوائدهما الإنتاجية، من احترام الذات إلى القدرة على الاتصال بالآخرين على الارتقاء بالذوق الاستهلاكي(حمداوي،2015م، 13-قرم،1997م، 35)

وتجدر الإشارة إلى الدور الذي لعبته النظرية النقدية عند مدرسة فرانكفورت (هربرت ماركيوز، أدورنو) في الإعلاء من قيمة الفنون، والآداب داخل المجتمعات الصناعية الحديثة، بعد أن أعطت للبعد الجمالي دورا سياسيا وأيديولوجيا. كما أن مفاهيم عالم الاجتماع بورديو ساهمت أيضا في إبراز قيمة الثقافة

ودورها في المجتمعات. فمفاهيم مثل الحقل الثقافي، و الرأسمال الاجتماعي، والرأسمال الرمزي، والرأسمال الثقافي قد ألقت الضوء على أهمية الثقافة ودورها في تحقيق أهداف التنمية المستدامة، وعلى رأسها العدالة الاجتماعية، وبما فيها العدالة الثقافية.

كيف تتحقق الاستدامة الثقافية ؟

سؤال حاول الكثيرون الإجابة عنه، دون أن ينتهوا إلى تعريف موحد أو ثابت لمفهوم الاستدامة الثقافية، يمكن التعويل عليه في الكشف عن كيفية تحقيق هذه الاستدامة. ربما كانت كثرة التعريفات التي أحاطت بهذا المفهوم سببًا في ذلك، وقد تكون حداثة المفهوم أحد الأسباب في عدم الاستقرار على مفهوم ثابت للاستدامة الثقافية.

وسأحاول هنا أن أتكئ على محاولة أحمد زايد للتعريف بالاستدامة الثقافية، لأنه الأقرب إلى توجه البحث. في مقالته بجريدة الأهرام حيث انتهى الدكتور أحمد زايد إلى تعريف الاستدامة في التنمية الثقافية على أنها " القدرة على التعامل مع الحقل الثقافي(بكل ما فيه من إنتاج للمعارف ونقلها وتداولها، ومن صناعات ثقافية في مختلف مجالات الحياة المعاصرة والتراثية، ومن فنون سمعية وبصرية وتخيلية) في الحاضر والمستقبل، بحيث يسهم بشكل فعّال مع حقول المجتمع الأخرى، في بناء المعرفة والفهم والوعي للأجيال الحالية ولأجيال المستقبل."(زايد، الأهرام، 2019م). و قد حصر لنا أحمد زايد مجموعة من العناصر بإمكانها تحقيق هذه الاستدامة نجملها فيما يلي:

- بناء سياسات ثقافية لها طابع الاستمرار والاستقرار بحيث لا تتغير إلا في ضوء متطلبات الاستدامة في الحفاظ على حقوق الأجيال القادمة.
- صناعة ثقافة للمستقبل قادرة على أن تتواكب مع ظروف العصر ومتغيراته، ومع نظم العولمة وتدفقاتها بكل ما تطرحه على الإنسان المعاصر من تحديات ومخاطر.
- بناء شروط عامة لإنتاج المعرفة، وتدفقها دون قيود، والعناية بالتعليم، والتربية الأخلاقية، والجمالية.
- تعني بناء معرفيًا ووجدانيا لأجيال جديدة تحتل الثقافة مساحة في عقولها، وتستحوذ على جزء كبير من اهتمامها (زايد، الأهرام، 2019م).

وقد ختم الكاتب مقالته بثلاثة شروط تمكّن الثقافة أو الخطاب الثقافي من التنوير والمساهمة في التنمية المستدامة:

1/ استقلال الحقل الثقافي.
2/ عدم الوصاية عليه- خاصة من قِبَل أصحاب الوصايا الجدد الذين يتخذون من الدين والأيديولوجية غطاء للوصاية.
3/ رعاية الدولة للحقل الثقافي وضمان استمراره، وحماية وظائفه في بناء الإنسان (زايد، الأهرام،2019م).

ولأننا غير معنيين – بحكم موضوع البحث، وزاوية النظر - بالحديث عن الحقل الثقافي بأكمله وبما يشتمل عليه من ثقافة مادية، وغير مادية، ومن الصناعات الثقافية ودور كل هذا في تنمية الاقتصاد، والتنمية الشاملة، ونظرًا لأهمية ذلك أيضًا، سأكتفي بالإشارة إلى أهم الدراسات التي أبرزت هذا الجانب[1]. وأهم المقولات التي أشارت إلى هذا الدور، ثم نركز على الجوانب التي تهم مجال تخصصنا (النقد الأدبي) وموضوع البحث(الرهانات التعبيرية والجمالية لروايات الخيال العلمي والاستدامة الثقافية) بما يحفظ لجنس روايات الخيال العلمي خصوصيته البنائية، والفنية في المساهم في تحقيق الاستدامة الثقافية والتنمية المستدامة.

أبرزهذه المقولات:

" إن الحفاظ على التراث الثقافي والمنتجات الثقافية ودعمها، يمكن أن يساعد في خفض ذلك الفقر المدقع الموجود في البلاد النامية، والتي هي بلاد فقيرة اقتصاديًا، لكنها تتميزعلى الرغم من ذلك بتراث

[1] بدأت بعض الدول العربية في التمهيد إلى الاستدامة الثقافية باعتبار الثقافة عنصرًا أصيلا في تعزيز التنمية المستدامة من ذلك دولة الإمارات العربية: يراجع: إحسان عبدالله محمد الهارش نحو تفعيل التنمية الثقافية لمواكبة التحولات التنموية المستدامة – دولة الإمارات العربية المتحدة نموذجًا، مركز جيل البحث العلمي، عدد46 أكتوبر 2018م. وحول مساهمة الصناعات الثقافية في الاقتصاد راجع: كوبيتي حفصة، أهمية الثقافة في تحقيق أهداف التنمية المستدامة، مجلة الأسواق المالية، الجزائر، مجلد 8، عدد 2، نوفمبر 2021، وكذلك يراجع: الصناعات الثقافية والإبداعية: سبل جديدة للتنمية، أبحاث المؤتمر الدولي الأول التراث الثقافي بالبلدان المغاربية – القيم المجتمعية والاستثمار التنموي، جميلة قادم، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكادير، 2022 م، وكذلك ما جاء في كتاب: الثورة الإبداعية للأمم: هل تستطيع الفنون أن تدفع التنمية إلى الأمام؟.، باترك كاباندا، ترجمة شاكر عبدالحميد، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، عدد 496، الكويت، يوليو 2022م.

ثري ومتنوع " (البنك الدولي – نقلا عن كاباندا،2022م،23).

" إن الإسهامات التي قدمتها الفنون الإبداعية والتي تكون متاحة مجانًا أو بأقل النفقات، في إثراء الحياة الإنسانية، أمرلم يوضع في الاعتباركثيرا في حسابات، أوداخل الناتج المحلي الإجمالي، أولهذا السبب أيضًا في مؤشر التنمية البشرية. لكن ما يمثل مشكلة بالنسبة إلى الناتج المحلي الإجمالي، وإلى مؤشر التنمية البشرية، ينبغي ألا يكون مبررا ما لإهمال الفنون الإبداعية".(أمارتيا سن- نقلا عن كتاب، كاباندا،2022م،41)

المبحث الثاني: الأدب بين إنتاج المعرفة وتشكيل الهوية

المجتمع كامن في الأدب، الفكر كامن في الأدب، الفلسفة كامنة في الأدب، النص الأدبي إذن: شبكة معقدة من أشكال المعرفة التخييلية، تلك التي تقدم معرفتها بالعالم والذات لا بواسطة المضامين والأفكار التي تطرحها النصوص الأدبية، وإنما بواسطة / عبر أشكالها الفنية وطرائق تعبيرها. وهذا ما يميز الخطاب الأدبي عن غيره من الخطابات الثقافية(السياسي- الاجتماعي- العلمي) التي تساهم في صنع الثقافة العامة للمجتمعات.

نستطيع أن نقول أن النص الأدبي أيّا كان (شعرا، رواية، قصة، مسرحية، إلخ) نص ثقافي بامتياز من حيث تشكُله، إنتاجه، وتلقيه. نص ثقافي يتغذى على المواد الثقافية، والمعاني المطروحة في المجتمع عند تشكله، ويعود إنتاجًا إلى المجتمع، لكنه لا يعود إلا وقد حملت تشكيلاته الجمالية رؤية لهذه المعاني المطروحة، وللعلاقات الكامنة في المجتمع. هذه الرؤية التي تكشف عنها أدوات المبدع وتقنياته، والأشكال التي حملت هذه الرؤية، وهي رؤية قد تتعارض مع الخطابات الأيديولوجية السائدة في المجتمع، أو تكرس لها. أيّا ما كان، فإن النصوص الأدبية تعبير جمالي عن مجتمعاتها، وحياتها.

والأدب بوصفه أبرز الحقول الثقافية، وأقدرها على التعبير عن المجتمع قد يحمل أنساقها الثقافية المضمرة سلبية كانت أم إيجابية، وقد لا يكتفي بإبراز هذه الأنساق فيقدم بجمالياته وتشكيلاته حلولا لها، فهو في النهاية حامل رؤية للعالم، وللواقع، تكشف عن مشكلاته وتناقضاته، وتقدم بدائل وحلولا لهذه المشكلات.الأدب بهذا قادر على تحديث وعي أفراد المجتمع، وصياغة مفاهيمه وعلاقاته.

ولسنا هنا في مجال يتسع لعرض تفصيلي لبيان كيف أن الأدب مخزون ثقافي للأمم. وللدور الذي قد يلعبه في تعديل سلوك الأفراد، توجيههم، وتوعيتهم من مخاطر الحاضر، أو المستقبل. يكفي فقط الإشارة إلى الدور الذي لعبته الآداب والفنون بكافة أجناسها(شعر، رواية، قصة، مسرح، فنون أدائية، السينما) في

تشكيل هوية أفراد المجتمع، بتثبيت نموذج اجتماعي ما، أو أخلاقي ما، أو غرس قيمة معينة، أو بالحفاظ على ثوابت المجتمع، أو بناء ثقافات ووعي جديدين تماشيًا مع التطور الاجتماعي. وليس بخافٍ أيضا الدور الذي يقوم به الأدب في مساءلة الموروث الثقافي والفكري من خلال التناص وتوظيف الموروث، أو الدور الذي يمكن أن يقوم به في المستقبل القريب والبعيد.

ولا يقتصر دور الأدب على المجتمع فقط، هناك الدور السياسي للأدب،إذ يقدم حلولا وآفاقًا للمستقبل، ليس غريبًا أن نجد الباحث عمّار علي حسن في كتابه (الخيال السياسي)، يرى في توظيف الخيال الإبداعي أحد أهم منابع، وروافد الخيال السياسي، وقد أشار عمار في كتابه إلى عشرات الأعمال الأدبية العربية والأجنبية التي تبرهن على وظيفة الأدب في إثراء الخيال السياسي والاجتماعي (عمار،2017م، 91-97). وليس هذا ببعيد عما عنته سمر الديوب، حيث تقول " أدب الخيال العملي في أحد وجوهه أدب الخيال السياسي، فهو يحاول أن ينتقد الواقع، ويحلل مشكلاته، ويقترح حلولا له" (الديوب،2016 م، 18).

عند تناول روايات الخيال العلمي. أو بالأحرى المؤهلات التي تؤهل روايات الخيال العلمي في المساهمة في بناء الإنسان. علينا أن ننظر إلى مفهومي: الاستدامة الثقافية، والتنمية المستدامة من منظور إنساني. ما الذي يمكن أن تقدمه روايات الخيال العلمي بوصفها إنتاجًا أدبيا يساهم في الخطاب الثقافي العام لتحقيق التنمية المستدامة.

المبحث الثالث:

رو اية الخيال العلمي والتخييل

يورد لنا باتريك كاباندا أحد مستشاري التنمية في البنك الدولي - وهو المؤلف الموسيقي، والعازف - قولا مأثورًا يقول:" إن أفضل طريقة للتنبؤ بالمستقبل هي أن تصنعه بنفسك"(كاباندا، 2022م، 318). وهذا هو ما تقوم به أغلب روايات الخيال العلمي الجادة والعميقة. نستطيع أن تقول: "أدب الخيال العلمي يعد الأوفر حظًا والأقرب من بين الفنون في الاستدامة الثقافية"، (الأحمر، 2019م، 60)، لا سيما في العصر التكنولوجي، والتقدم العلمي، لقد صار الخيال العلمي الآن يعرف بوصفه نمطًا وصفيًا، وتحليلاً ثقافيًا للمجتمعات. لعل أهم ما يميز هذا النوع من الأدب أنه أدب " يروض ما يكتنف المستقبل من تهديد، ويفصح بفعله هذا عن جانب من موقعنا الإنساني الحالي بطريقة تستعصي على أي شكل أدبي آخر" (هجنتون، 1986م،76).

الخيال العلمي يمثل خريطة معرفية وطريقة مغايرة لمعرفة الحقيقة تعتمد على الإلهام والخيال

الخلاق، والأحاسيس والقيم والعلم في توليفة واحدة فاعلة، إذا ما أحسن خلطها وتوظيفها (زاهر، 2002م، 300)، كما أن الخيال العلمي - كما يقول ضياء الدين زاهر – قادر على:

- إمدادنا بنظام مبكر لمسائل، وقضايا علمية واجتماعية حاسمة، فالسيناريوهات التي ترسمها روايات الخيال العلمي حول قضايا البيئة، مثلا الانفجار السكاني، وندرة الموارد البيئية وتدهورها.. إلخ. وهو قادر على حث الناس على توقع تحدياتها ومفاجأتها وبالتالي، التهيؤ والاستعداد لمواجهتها قبل قدومها.
- تنمية الإبداع، فالرؤية الجديدة المبنية على الخيال العلمي تستطيع أن تدفع قارئها للمشاركة الفعالة في عملية الخلق المبدع مستخدمة كل عواطفه وعقله معًا. ومن هنا جاء وصف أدب الخيال العلمي بأدب الأفكار.
- صناعة التغيير وتنمية قيمه، فبينما تكون روايات الخيال العلمي وقصصه مكتوبة للتسلية، فإنها قد تستعمل أحيانا على أنها عجلة تدير التغيير، بل عاملاً في التغيير ذاته، لما يمكن أن تتركه من تداعيات مجتمعية علي مستويات فكر الجماعة وصناع القرار (زاهر، 2002م، 301).

المبحث الرابع:

جماليات التشكيل في روايات الخيال العلمي

نسعى في هذا المبحث إلى إلقاء الضوء على أهم المؤهلات الفنية، والتعبيرية التي تؤهل روايات الخيال العلمي للمساهمة في التنمية المستدامة والاستدامة الثقافية، وتجدر الإشارة هنا إلى التركيز سيكون على اعتبار شكلي/ تعبيري أو بمعنى آخر النظر إلى روايات الخيال العلمي بوصفها شكلاً تعبيريًا، يمتلك طاقات تعبيرية ورؤيوية تمكنه من المساهمة في بناء الإنسان، وبناء وعيه بالشكل الذي يساهم في بناء المجتمع، لا بوصفها خطابًا ثقافيًا مباشرًا، يتخذ من العلم بابًا لاستشراف المستقبل والتنبؤ به. وقبل أن نتناول ذلك سنشير سريعا إلى بعض أدب الخيال العلمي في العالم العربي، أبرز كتابه، وموقعه على خارطة الرواية العربية، وموقف النقاد منه، لما له عظيم الفائدة في هذا المبحث.

ظهر أدب الخيال العلمي باعتباره ابنًا شرعيًا للعصر الحديث، وللتقدم العلمي والتكنولوجي، واستطاع هذا الأدب بوثباته أن يخلّص الأدب من تبعيته للسياسي، والأيديولوجي، والفكر الطبقي. فقد سعي بالمخيلة، والتخييل إلى استشراف آفاق المستقبل، بشكل يسمح له بالمشاركة الفاعلة في الحياة، وبشكل يعيد للأدب مكانته الأساسية للتخطيط للمستقبل الإنساني. و هو أدب يحتاج من كاتبه التسلح بالمعارف العلمية، فهو أدب يمثل العلم أساسه ومشكّل حبكته.

رغم أن هناك محاولات للبحث في التراث العربي عن جذور هذا الأدب أو ما يناظره، إلا أنه يمكن القول أن أول هذه المحاولات الجادة ظهرت في مصر عند يوسف عز الدين عيسى، في مسرحيته (عجلة الأيام) نشرت عام 1936م وقدمت للإذاعة 1940م، وتم إعادة نشرها في جريدة الأهرام عام 2000م، تلاها كتابات توفيق الحكيم قصة بعنوان (في سنة مليون1953م)، مسرحية بعنوان (رحلة إلى الغد 1958م)، ثم مسرحية (أهل الكهف)، وكتابات مصطفي محمود (العنكبوت 1964م) و (رجل تحت الصفر 1967م). وكتابات رائد الخيال العلمي: نهاد شريف (قاهر الزمن 1966م)، و(سكان العالم الثاني، ابن النجوم، الشيء، تحت المجهر، نداء لولو السري، الماسات الزيتونية، أنا و كائنات الفضاء، الذي تحدى الإعصار).

وهناك رواية صبري موسي (الرجل من حقل السبانخ) التي نشرت في مجلة (صباح الخير) في الفترة من سبتمبر 1981م إلى يناير 1982م، وطبعت في كتاب 1987م. وكذلك كتابات رؤوف وصفي وأشهرها (الكون والثقوب السوداء). و روايات أحمد خالد توفيق التي أخذت شكل الرواية اليوتوبية أحيانًا، والديستوبية أحيانًا آخر. ونشر إيهاب الأزهري (الكوكب الملعون)، ولدياب عيد رواية (نداء الكوكب الأخضر)، ومن الكويت الكاتبة طيبة إبراهيم، ومن السودان جمال عبد الملك ومجموعته القصصية.

وإذا اتجهنا لبلاد المغرب العربي طالعنا أحمد عبدالسلام البقالي (الطوفان الأزرق) 1976م، (سأبكي يوم ترجعين 1982م)، ومحمد عزيز الحبابي (إكسير الحياة 1974م)، عبدالرحيم بهير (مجرد حلم 2004م). وفي سوريا طالب عمران الذي عرف بإنتاجه الضخم، ولينا كيلاني، وغيرهم.

وعلى الرغم من هذا الكم الكبير من روايات الخيال العلمي لا سيما في السنوات الأخيرة إلا أننا نعاني من ندرة روايات الخيال العلمي في العالم العربي، قياسا بالعالم الغربي وأمريكا، هذه الندرة أرجعها محمد برادة إلى أربعة أسباب: غياب الثقافة العربية الحديثة بالعلم، تعطل آلية الحراك الاجتماعي السياسي، محتوى التعليم ومشكلة المصطلحات وتطويع اللغة (برادة، 2008 م، 101-104).

الموقف من أدب الخيال العلمي، و من رو ايات الخيال العلمي:

تباينت مواقف النقاد والكتّاب العرب تجاه أدب الخيال العلمي بصفة عامة، ورواية الخيال العلمي بصفة خاصة، لاسيما في بداياته (فترة الخمسينيات إلى السبعينيات الميلادية).

الموقف الرافض لأدب الخيال العلمي، وقد تجلى هذا الرفض في عدة صور منها، التقليل من شأن هذا النوع وقيمته من الأدب، أو عدم الاعتراف به من المؤسسات الرسمية، وتهميشه والتقليل من قيمته وأهميته، ووظيفته في الحياة. من ذلك ما نجده عند نجيب محفوظ في مجلة المجلة :" إن أدب الخيال العلمي

يفتقر إلى العلم، لا جدوى منه، فهو يبتعد عن الأدب الجاد، لأنه لا يقدم تجربة إنسانية حية، وهو مجرد كلام فارغ لا نعرف إن كان سيتحقق أم لا". من ضمن تجليات الرفض أيضًا، أنه أدب تتكرر فيه الموضوعات والتيمات، سطحية لغته، وضعف بنائه الفني، وضعف حبكته، ونمطية شخصياته لغته العلمية تبتعد عن الأدبية، أنه أدب يتهرب من الواقع، يبالغ في الخيال، فهو يتهرب من الأرضي ويلوذ إلى ما دونه(عطية، 1980م،57). من ضمن النقد الذي وجه لروايات الخيال العلمي أيضًا: إخفاقه في النقد الاجتماعي، وتعديل السلوك الاجتماعي (ديفيد، 2016م، 127). وهي انتقادات يمكن الرد عليها، واعتبارها مزية في روايات الخيال العلمي كما سيأتي.

انعكست الانتقادات السابقة على دراسة أدب الخيال العلمي والاهتمام به، خاصة في المؤسسات الرسمية والأكاديمية، إذ يلاحظ قلة الدراسات الأكاديمية في هذا الجانب، قياسًا بعملية الإنتاج. فما كُتب من دراسات أكاديمية في هذا الجانب يكاد يعد على أصابع اليد. وأغلب ما جاء من دراسات جاء من قِبل المهتمين بالشأن الثقافي، أو من كُتّاب هذا النوع. وكما يقول محمد برادة "لا نجد في كتب نظريات الرواية والتنظير لها، اهتمامًا بالتخييل العلمي، ومحاولة إدماجه بتاريخ الرواية العام.

لقد فرض الخيال العلمي نفسه أساسًا، من خلال السوق وتكون جمهور واسع من القراء، خلال العقود الأولى من القرن العشرين، ومن مشاهدي الأفلام السينمائية منذ الستينيات، وخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث أصبح هذا الجنس التعبيري يتوفر على كُتّاب كبار وعلى مجلات وقرّاء وافرين " (برادة،2008م، 90).

على الجانب الآخر والنقيض نجد هناك احتفاء بأدب الخيال العلمي، وبروايات الخيال العلمي، ومواقف من شأنها أن تعلي من شأن روايات الخيال العلمي، على نحو ما جاء عند مدحت الجيار، الذي يرى في روايات الخيال العلمي امتدادًا لفن الرواية العربية، واستمرارًا له، فهو فن يأخذ تقنياته وأدواته، ويغير العناصر المشّكلة له (الجيار، 1984م، 182).

ولم يختلف رأي الكاتب والروائي صبري موسى عن رأي الجيار، إذ يرى أن فن روايات الخيال العلمي أقرب إلى هموم الإنسان المعاصر. ونجد عند الروائي المغربي أحمد عبدالسلام البقالي في مقدمة الطبعة الثانية لروايته الطوفان الأزرق، ردا على نجيب محفوظ، مؤكدا أهمية روايات الخيال العلمي (البقالي، 1986م، 8).

يصنف النقاد أدب الخيال العلمي لصنفين، الأول يعرف بالخيال العلمي الخشن hard- S-F، والثاني يعرف بـ الخيال العلمي الناعم soft- S-F، أغلب روايات الخيال العلمي في العالم العربي تنتمي إلى النوع

الثاني، إذ تهتم بالجوانب السياسية والاجتماعية والفلسفية التي يطرحها واقع الكاتب، فهي لا تميل إلى التفاصيل العلمية، وإنما تتخذ من العلم مادة و وسيلة لمعالجة موضوعات يفرضها واقع الكاتب وزمنه، وليس هذا غريبًا، فمازال الأديب العربي منشغلاً بالواقع وقضاياه. وإذا كان النقاد قد حددوا عدة وظائف للخيال العلمي، الوظيفة الدعائية، والوظيفة الانتقادية، الوظيفة التنبؤية (العبد، 2007م، 38)، فإنه يمكن القول أن أغلب كتاب رواية الخيال العلمي في العالم العربي يقتربون من الوظيفتين (الانتقادية، التنبؤية) راجع على سبيل المثال رواية صبري موسى (السيد من حقل السبانخ)، و (رواية الطوفان الأزرق) لأحمد عبدالسلام البقالي، والمغربي عبدالرحيم بهير في رواية (مجرد حلم)، و(إكسير للحياة) لمحمد عزيز الجبابي. فأغلب الروايات المذكورة تتخذ من الرحلة أو الحلم وسيلة في النقد السياسي والاجتماعي، و تقدم تنبؤات بالوضع الإنساني في المستقبل بناء على معطيات واقعها.

صحيح أن روايات الخيال العلمي في العلم العربي لم تشكل تيارا بعينه، ولم تخرج من عباءة تطور الرواية، إلا أن لها حضورًا قويًا على الساحة الأدبية، كما أن اقترابها من القضايا الاجتماعية والسياسية والفلسفية واهتمامها بموضوعات الوجود والمصير والرفض، والنقد الاجتماعي، عزز هذا الحضور. وقد ساعدها في ذلك ما يعرف الكتابة خارج أسيجة الأيديولوجيا السائدة فيما عرف بالدعوة الى الواقعية أو الواقعية الاشتراكية خاصة بعد هزيمة حزيران 1967م. فالرواية العربية "ارتادت مرحلة من النضج جعلتها تسلك السبيل إلى ما يبرز خطابها المؤثر، المميز ضمن خطابات الثقافة العربية الباحثة عن أفق للتغير الجذري".

على أية حال يمكن القول بأن روايات الخيال العلمي جاءت نتيجة تحولات بنيوية مجتمعية ثقافية، جاءت لتنظر للواقع من زاوية أخرى متخذة من العلم و الخيال العلمي مادة وخلفية لها، فهي تمثل أدبي للعالم وللواقع.

أ. رواية الخيال العلمي بين التخييل واستشراف المستقبل:

يقر أغلب دارسي روايات الخيال العلمي، وكُتّابه- أيضًا -على أن السمة البارزة في هذا النوع من الكتابة هي التنبؤ بالمستقبل، لذا دائما ما يقرّون بأنه (أدب المستقبل) و (أدب الاستشراف)، وكأنهم بهذا الاقتران يستبعدون بقية أنواع الروايات، التاريخية، الواقعية، الواقعية السحرية، الاجتماعية، و يكاد هذا الاقتران أيضًا أن يستبعد أي علاقة بين روايات الخيال العلمي، و واقعها وأيديولوجية هذا الواقع، ربما ما يدعمهم في ذلك بعض التقنيات الشكلية التي تمتاز بها رواية الخيال العلمي، ومن أهمها الانطلاق من المادة العلمية، وأنها تبني تصوراتها انطلاقًا من ذلك.

في البداية أريد أن نؤكد مسألتين:

الأولى: أدب المستقبل لا يقتصر على روايات الخيال العلمي، وإن كانت لها ما يميزها.

الثانية: أن روايات الخيال العلمي، وإن كانت رواية مستقبلية، تنظر للمستقبل، وتحاول أن تستشرفه، وتتنبأ بأحداثه، إلا أنها لا تفعل ذلك إلا من خلال الانطلاق من رؤيتها للحاضر والماضي أيضًا.

فروايات الخيال العلمي لا تنفصم عن واقعها البتة، تتكئ على الحلم، أو الرحلة، السفر عبر الزمن إلا أنها لا تفارق الواقع. قد تقدم نقدا للواقع، تكشف عن مساوئ اللحظة الراهنة، تكشف تناقضاته، وتعري أيديولوجيته، تقدم معرفة بالواقع المعيش. إن روايات الخيال العلمي لا تتخذ من العلم موضوعًا، بقدر ما تتخذ من الخيال العلمي استراتيجية سردية، أو وسيلة فنية، يقيم بها مع الواقع جدلية لطرح رؤيته، فهو ينطلق من الواقع متخذا منه موقفا قد يكون انتقاديا، أو ساخرا، أو محرضا على التغيير، أو كاشفا لتناقضات الإيديولوجيا التي يعج بها الواقع.

صحيح أن بروز رواية الخيال العلمي على الساحة الأدبية يجعل من هذا الجنس التعبيري الصيغة الأكثر ارتباطًا بالمستقبل وتمثلاته الفنية المستمدة عناصرها من العلم وافتراضاته، وإمكاناته اللامحدودة. غير أن ذلك لا يعني أن روايات الخيال العلمي هي وحدها المختصة بمعالجة المستقبل، لأن الرواية في سيرورتها، وتاريخها، وعلى اختلاف أشكالها ومجالاتها استحضرت مستقبل الإنسان في أبعاده الذاتية والغيرية، وفي علائقه بالطبيعة والكينونة، وكل ما ينتمي إلى المجهول الموقظ للحيرة والارتياب والتساؤل عن المصير (برادة، 2017م، 88).

التخييل إذن من أهم الرهانات التي يمكن أن تعول عليها، لا بوصفه خيالا مطلقا متجردا من الواقع، ومنفصلا عنه، وإنما من خلال ارتباطه بالواقع وجدليته معه. وليس غريبًا أن نجد وبي ستيفنتسون في كتابه(محاولات عن فن التخييل) يقول" الكتب التي لها تأثير أكثر دومًا، هي الأعمال التخييلية. إنها لا تربط القارئ بعقيدة يتعين عليه لاحقًا أن يكتشف خطأها، ولا تعلمه درسًا سيتحتم عليه أن يمحوه من ذاكرته فيما بعد. إنها كتب تكرر وترتب وتوضح دروس الحياة. إنها تحررنا من أنفسنا وترغمنا على معرفة الآخرين، وهي تدلنا على نسيج التجربة، لا كما يمكن أن نراها بأنفسنا، وإنما من خلال تغيير أساسي، وهو أن ذلك(الأنا) الغول، المُلتهم، الكامن فينا، سيوجد في هذا الظرف التخييلي مُلغى " (برادة، 2017م، 86).

إنها الطاقة التخييلية التي ألح عليها بول ريكور في أكثر كتاباته، وهي النافذة التي يفتحها الخيال. يقول ريكور:" بقراءة القصص والتواريخ التي تبرز كامل نطاق الإمكانات الإنسانية، وبدلاً من تصوير الأدب

الخيالي بوصفه مجرد نتاج للوهم، يصر ريكور أن الأخيلة لا تشير إلى الواقع فقط، بل(تقوله) فعلاً.

يرى ريكور أن الأعمال الخيالية لا تقل واقعية، بل هي أكثر واقعية من الأشياء التي تمثلها، إذ يتضمن العمل الخيالي عالمًا كاملاً معروضًا أمامنا، (يكشف) الواقع ويجمع ملامحه الجوهرية في بنية مركزة أو عمل(تقول) الأخيلة الواقع الإنساني باشتراعها (إسقاطها) عالمًا ممكنا يستطيع أن يتقاطع مع عالم القارئ ويحوله" (ريكور،1999م، 81). التخييل سمة لكل الفنون، وأن تفاوتت أهميته، فهو حاضر بقوة في المحكي السردي، والسرديات الكبرى، فللخيال القدرة على قول الواقع، وفي إطار الخيال السردي على وجه التحديد، على قول الممارسة الواقعية إلى حد أن النص يستهدف قصديًا أفق واقع جديد يمكن أن نسميه عالمًا. يتخلل عالم النص هذا عالم الفعل الواقعي لكي يضفي عليه تصورًا جديدًا، أو إذا صح القول، لكي يحول صورته." (ريكور،1999م، 81).

إن عالم النص هو طريقة للوجود في العالم من شأنها أن تبتكر إمكانيات متنوعة، خيالية مشترعة في الموقف الخيالي، إذن فالقصص، ليست غير واقعية ولا وهمية، بل هي فعلا وسيلة اكتشاف انطولوجية لعلاقتنا بالموجودات وبالوجود." (ريكور،1999م، 84).

غير أن أدب الخيال العلمي، باستثماره للعلم ولمقوماته، وبتوجهه إلى المستقبل، يتميز بتقديم عوالم بديلة، خارج إطار الزمن الواقع (الديستوبيا- اليوتوبيا) لكن من منطلق علمي، يحفظ للواقع منطقيته. كما أنه، ومن خلال قدرته على "تمثل الغيرية Otherness(القدرة على استيعاب الاختلاف عن الآخرين) وعلى تخيل البدائل الممكنة لتغيير الأمر الواقع والحالة الراهنة، برهن الخيال العلمي على أنه صيغة أدبية فعالة في هدم التفرقة العنصرية، كما فعل بالنسبة لمفهوم نوع الفرد." (بوكر، توماس، 2010م، 243).

و يمكن الرهان على روايات الخيال العلمي العربية لتنتقل من المحلية إلى العالمية، الكونية. فهي قادرة على أن تضع كتابها/ مؤلفيها في الموقع الذي يؤهلهم لأن يكتبوا ضمن الفضاء العالمي، فتيماتها/ موضوعاتها/ واتكاؤها على العلم / الخيال العلمي قادرة على أن تجعل منها علوًا على الأزمنة والأمكنة، وبالتالي تجعل من النصوص رأس مال أدبي، ينافس، ويحارب العولمة، ويشارك في صنع السياسات العالمية، لا بوصفه تابعا، وليس من باب التبعية، وإنما من باب المشارك الفاعل، خير دليل على ذلك: كتابات الكاتب: نبيل فاروق، فيما يتعلق بما بعد الإنسانوية، وقضاياها.

وأخيرًا وليس آخرا، إذا كانت سمة التخييل سمة مشتركة بين روايات الخيال العلمي ونوع الرواية، فإننا نحاول- هنا - أن نقترب أكثر من الوقوف على سمات مائزة لهذا الجنس انطلاقًا من إحدى التعريفات التى عرّفت الخيال العلمي. نص التعريف " الخيال العلمي 1- أثر غير مألوف Extraordinaire يسبب عند

القارئ/ المشاهد اندهاشًا شديدًا، هو مصدر قلق أو نشوة لكن يدل قبل كل شيء على هزيمة أشكال يقين منجزة موروثة من التقاليد، 2- أثر تأسيس أو إعادة إحياء للمحتمل الواقعي، الذي اختل عند القارئ، بصدمته بغير المألوف يؤمن له عنفًا أعظميًا من خلال إعادة المسبق، أو من خلال مصاحبته في ارتداداته على انسجام العالم الاختياري الذي تؤمنه هنا مجموعة غير منتظمة إلى حد ما من القوانين الفيزيائية، ومن القواعد الاجتماعية، ومن الضوابط الثقافية، ومن الصنيعات التكنولوجية، وفي نهاية هذه العملية سيكون نظام العالم قد أطيح به(بشكل تدريجي كما في نظرية أحجار الدمينو، أو دفعة واحدة) أو أجبر على إعادة التركيب بشكل آخر من أجل أخذ الواقع الجديد بعين الاعتبار" (غوامار، 2009م، 120).

ب. رواية الخيال العلمي والتداخل مع الأجناس الأدبية الأخرى، والتيارات الأدبية:

التداخل مع الأجناس الأدبية الأخرى، والتيارات الأدبية، والأساليب الأخرى سمة من سمات أدب الخيال العلمي، قد يأخذ أحيانا شكل الامتزاج بالفنتازيا، أو شكل اليوتوبيا، أو شكل الديستوبيا وغيرها. ويظل الخيال الديستوبي " واحدًا من أهم الألوان الفرعية من الخيال العلمي في بواكير القرن الحادي والعشرين، ورواية الديستوبيا خصوصًا إذا قرئت على أساس أنها تهكم لاذع ينتقد النظام الراهن (أكثر منها فانتازيا مرعبة تجعل من الواقع الراهن بالمقارنة البديل الأفضل) تبقى إحدى الصيغ الأكثر فائدة وذات الرصيد من الخيال العلمي. وهذا الرصيد يتحقق- على كل- عندما يكون النقد الديستوبي للتبعات السلبية المحتملة للاتجاهات التكنولوجية والاجتماعية والسياسية مصحوبًا بأطروحات لبدائل أفضل في حيز الإمكان والتطبيق. وبهذا فمن الجلي أن الخيال الديستوبي ليس مضادًا للخيال اليوتوبي، وإنما هو نوع متمم له "(بوكر، توماس، 2010م، 140). فأدب الخيال العلمي يتداخل مع أكثر من جنس، وهو لا يندرج تحت نوع أدبي بعينه، وهذا يعطيه ميزة إذ يشير إلى" نمط من التحليل الثقافي، فينطوي هذا النوع الأدبي المستقبلي على وظيفة ثقافية، فهو الصورة المقروءة للأفكار، ينطلق من فرضية أدبية خيالية، ويطورها إلى فرضية علمية قابلة للتطور، فيصور العلم في نوع أدبي قائم على الغموض والأسرار."(الديوب، 2016م، 32).

وإذا كانت روايات الخيال العلمي تنفتح وتتمازج مع أكثر من لون وأسلوب سردي، فإنها من ناحية أخرى، تنفتح على نصوص قد تنتمي للماضي، وقد تنتمي للحاضر، وهو ما يمكنها من فعل (التنبير) الذي حدثنا عنه باختين في تنظيراته للفن الروائي، مما يجعل روايات الخيال العلمي مجالا للحوارية، تلك التي تزيل الحدود بين الأزمنة، وفي الوقت نفسه، تعانق الأسئلة التي تشغل بال الناس ومشاعرهم على امتداد العصور، وبذلك تساهم في الخطاب العالمي، والكوني في مناقشة العديد من القضايا عابرة الحدود، العدالة، التلوث البيئي، الفقر، اللامساواة، التميز العنصري.

ج. رواية الخيال العلمي: التكنيكات والاستراتيجية(لغة الصورة / اللغة السينمائية):

لكل نوع أدبي أدبياته وفنياته، تلك التي تختلف من جنس لآخر، أو حتى من تيار أدبي لآخر. للروايات الواقعية فنياتها وأسلوبيتها، وللرواية الكلاسيكية أيضا تكنيكاتها و أسلوبيتها، والكلام ينطبق على الروايات الرمزية، الاجتماعية وغيرها.، معنى ذلك أن لكل جنس أدبي أو نوع أدب استراتيجياته الخاصة، وبها تتشكل رؤية المبدع للعالم، ومنطلقاتها ستحدد نوع الشخصية، والفضاء الزمكان، والزمان، والمكان، طريقة السرد، الحبكة، نوع التخييل، اللغة السردية، تفرض قواعد جديدة. الالتفات إلى هذا الجانب مهمة جدا، خاصة في تناولنا لأسلوبية التعبير، وطرائقه التي اعتمدتها أغلب روايات الخيال العلمي في العالم العربي.

ولعل عدم إدراك هذا أوقع الكثيرين في اتهام روايات الخيال العلمي كما مر بنا سابقًا، والتهوين من قيمتها الجمالية، التقريرية، لغتها غير أدبية، غير واقعية،... إلخ من مثالب ألحقت، وألصقت بروايات الخيال العلمي. هنا لا بد أن ننصت إلى النصوص، وكيفية توظيفها واستثمارها للغة والتشكيل، لا أن ننطلق من أحكام معيارية تقيس على نظرية الرواية بصفة عامة، و لا بد وأن نحترم النص، ونعرف أننا أمام نوع أدبي له خصوصيته وقواعده.

وهنا تجدر الإشارة إلى بحث محمد العبد (الخيال العلمي: استراتيجية سردية) فقد لاحظ و هو بصدد دراسته لمجموعتين قصصيتين لنهاد شريف عدة استراتيجيات يمكن أن نلمحها ونرصدها في أغلب روايات الخيال العلمي في العالم العربي، من بين هذه الاستراتيجيات والتكتيكات: ميل سرديات الخيال العلمي إلى تبطيئ الإيقاع السردي (العبد، 2007م، 38)، وهو أمر يلاحظ عند أغلب كُتّاب روايات الخيال العلمي في العالم العربي، هذا التبطيء والحد من اندفاعه قد يكون بعدة طرق منها على سبيل المثال لا الحصر الوصف التفصيلي- الميل إلى اللغة السينمائية التصويرية، استخدام اللغة السينمائية.

يقول العبد " ولعل سرديات الخيال العلمي من أنسب الأنواع الأدبية السردية لتفعيل مثل تلك المزاوجة. لا شك أن الإيقاع البطيء سوف يسمح للصور المرئية التي يرسمها الكاتب في قصصه بأن تشغل في مخيلة القارئ مدى أطول للتأمل والمعايشة. ما أكثر المشاهد التي يقوم الكاتب على تصويرها رهبة أو دهشة أو مفاجأة أو غرابة " (العبد، 2007م، 38).

كثيرًا ما اتهمت روايات الخيال العلمي بالمباشرة، والتقريرية وأنها أقرب للخطاب العلمي منه للأدبي، أقرب للخطابة، وكتابة التقارير العلمية، أو اقترابها من المقال العلمي، والمقالية مما يبعدها في النهاية عن الأدب ومكوناته. صحيح هذا موجود في أغلب روايات الخيال العلمي، لكن قد يكون مقصودا من المؤلف في مواقف داخل الرواية لوظيفة ما، خاصة إذا ما نظرنا إلى النص في كليته، وبعيدا عن التقطيع.

هنا نشير على سبيل المثال إلى فكرة توضح مدى انعكاس آليات الإنتاج على الموضوع لكل فن استراتيجاته وتقنياته. فطبيعة الموضوع، والمعالجة، وزاوية الرؤية كل هذا يفرض على الكاتب أساليب وطرائق معينة. ففي رواية (السيد من حقل السبانخ) نرى على العكس من تيار الرواية الجديد أن المؤلف هو الراوي، وأن الشخصيات نمطية، مسطحة، والراوي محايد والشخصية تنمو من خارجها، ويفرض عليها كل شيء، مما يجعلنا أمام لغة واحدة، وصوت واحد، لا عدة أصوات، واللغة منطقية.

الوهلة الأولى قد تدفعنا إلى الحكم على الرواية بأنها تقليدية. غير أن التأمل في موضوع الرواية في علاقته بهذه التكنيكات والتقنيات مجتمعة، تدفعنا إلى القول بأنه تكنيك مقصود، وأشكال تعبيرية مختارة بعناية فائقة بدءًا من اختيار العنوان المقلق (السيد من حقل السبانخ)، مرورا بلغتها، ونوع الراوي، وطريقة الحكي، والفضاء الزمكاني سيطرة العقل والآلة والمنطق هو ما أرادت أن تؤكده الرواية، وهو ما قالته ليس من خلال اللغة المباشرة، والخطابية، وإنما من خلال تقنياتها ووسائلها التعبيرية (موسى،1997م). هذا ما أرادت الرواية أن تقوله وقالته من خلال تقنياتها.

د. رواية الخيال العلمي وصلتها بالقارئ:

لا نبالغ إذا قلنا بأن نصوص روايات الخيال العلمي من أفضل النصوص المؤهلة لأن تساهم في الاستدامة الثقافية إنتاجًا وتلقيًا. روايات الخيال العلمي نص مختلف، والنص المختلف هو ذلك النص الذي يؤسس لدلالات إشكالية تنفتح مع إمكانات مطلقة من التأويل والتفسير، فتحفز الذهن القرائي وتستثيره ليداخل النص ويتحاور معه من مصطرع تأملي، يستكشف القارئ فيه أن النص شبكة دلالية متلاحمة من حيث البنية، و متفتحة من حيث إمكانيات الدلالة، وبما أنها كذلك فهي مادة للاختلاف" (الغذامي،1994م، 5).

رواية الخيال العلمي نصٌّ مختلف في علاقته باللغة، وفي علاقته بمرجعيته، وفي علاقته بالواقع، ومع ذلك فهي تتوسل بكل التقنيات والتكتيكات، البصرية والسمعية، أكثر من اعتمادها على اللغة. يعوض الفاقد من اللغة العلمية التي قد توصف بأنها غير أدبية لتصل إلى القارئ، لكسب قرّاء، ليس هذا فقط، وإنما التفاعل معهم.

كُتّاب روايات الخيال العلمي يستهدفون بالأساس أكبر شريحة من القرّاء، ويعولون عليهم في استكمال دائرة الإبداع (لاحظ أن القراء، والجمهور هو من شجعهم على الكتابة في هذا النوع، روايات الخيال العلمي في نشأتها ارتبطت بالسوق الثقافي، الذيوع والانتشار من الأسباب التي كفلت لها الاستمرارية) ومن هنا يأتي حرص كُتّاب روايات الخيال العلمي على القراءة، وعلى فكرة الإيصال والاهتمام بالقارئ، وذلك بتبني

استراتيجيات وتكتيكات معينة داخل نصوصهم، لذا فهم -أي كُتّاب روايات الخيال العلمي- يشحذون طاقاتهم أثناء الكتابة لاكتساب قارئ نموذجي، ويحاول جاهدا استثمار فكرة التأويل التعاضدي كما هو عند إمبرتو إيكو، حيث يصبح تأويل نص ما" رهين بتدخل القارئ، بناء على توظيفه لكفاياته، للكشف عن عالم النص سواء ذلك الذي تخيله الكاتب أم ذلك الذي لم يتخيله. ذلك أن كفاية المتلقي ليست بالضرورة متساوية بأهميتها لكفاية الباحث، من هنا يضطلع القارئ بدور الكشف عن العوالم الممكنة التي يتيحها النص. انطلاقا من التجليات النصية. أي ما قاله النص من جهة. وبناء على الفراغات المبثوثة في النص، ما لم يقله النص من جهة ثانية. " (العلوي، 2019م، 71).

لا يغيب عنا أن روايات الخيال العلمي في نشأتها، خاصة في العالم العربي لم تَنْمُ، وتتطور في حضن الرواية، وإنما فرضت نفسها من خلال السوق، والقراءة، وبمساعدة أفلام الخيال العلمي، ساعده في ذلك عصر الصورة. كان أغلبه بسبب السوق الثقافية التي كفلت لها الانتشار والرواج، لذا نرى حرص الكتاب على القارئ، ومشاركته التأويل باعتباره فاعلا ومتفاعلا وهذا ما لمسناه من حرصهم على التوصيل والإيصال.

ولأن روايات الخيال العلمي، تعتمد على الإغراب، وغير المألوف عادة ما يدرك القارئ أن المعنى الحرفي عبثي، وعندئذ يشك القارئ في المعنى لذي يقصده المؤلف فيلجأ إلى تأويل هذه الاستعارة " إن الاستعارة – بعد أن تؤول- تفرض على القارئ النظر إلى العالم بطريقة جديدة، ولتأويلها وجب على القارئ أن يتساءل(كيف) وليس(لماذا) تريه العالم بهذه الطريقة الجديدة؟ ففهم الاستعارة لا يتطلب الرجوع إلى الأشياء كما هي موجودة في العالم و إدراكها، بل يتطلب الرجوع إلى محتويات التعابير المُشكّلة للاستعارة، أي الرجوع إلى المؤولات المختزنة في الموسوعة الثقافية للقارئ" (بوزكور،2016م، 44).

ويمكن توصيف روايات الخيال العلمي بأنها نص نشيط بمعنى: يسعى فيه المؤلف إلى اكتساب جمهور بكل ما أوتي من قوة. مع استثمار اللغة، والاستعارة من الفنون الأخرى بحيث يجعل من نصه نصًا يتسم بالنشاط الذي يحرك ذهن المتلقي ويستفزه.

الخاتمة وأهم النتائج:

إذا كان الهدف الأساسي للتنمية البشرية المستدامة هو بناء الإنسان، وتمكينه من توسيع نطاق خياراته ليعيش حياة أفضل، تقوم على العدل والمساواة فإن الحقل الثقافي هو البداية الحقيقية لتحقيق هذا الهدف، من خلال إنتاج وصناعة ثقافة عادلة تنهض بالإنسان، وتنهض بوعيه، لتمكنه من التعايش حاضرًا ومستقبلا.

وقد سعى البحث في المبحث الأول من الربط بين الاستدامة الثقافية والتنمية المستدامة، وأشار إلى أهمية الفن والأدب في الحقل الثقافي بما يتمتع به من قدرة على الاستقلال عن الواقع وعن الأيديولوجية التي تسعى لتنميط الإنسان.

ومن خلال التخييل واستشراف المستقبل، وهما جناحا روايات الخيال العلمي، الذي يمتلك مؤهلات تعبيرية وجمالية تؤهله للمساهمة في النهوض بالإنسان وبوعيه. فالأساس في التنمية البشرية المستدامة ليس الرفاهية المادية فحسب، بل الارتفاع بالمستوى الثقافي للناس بما يسمح لهم أن يعيشوا حياة أكثر امتلاء، ويمارسوا مواهبهم، ويرتقوا بقدراتهم.

وقد توصلت الدراسة إلى عدة نتائج، لعل من أهمها: أن أدب الخيال العلمي بما يمتلكه من طاقات تعبيرية وتشكيلية تجذب القراء، وباعتماد على الصورة البصرية، ولغة السينما هو الفن الأوفر حظًا في صناعة ثقافة قادرة على توعية الأفراد بماضيهم، وحاضرهم، ومستقبلهم. وأن روايات الخيال العلمي بأشكالها وأنماطها المختلفة (الدوستوبيا- اليوتوبيا) قادرة على تقديم عوالم بديلة ليست بعيدة عن الواقع، وإنما هي حلول لتناقضات واقعية.

ومن ضمن النتائج أيضا أن روايات الخيال العلمي بما أنها تعالج موضوعات وجودية وكونية، وتتناص مع خطابات متعددة يمكن أن تشارك في الخطاب الثقافي العالمي ليس من باب التبعية، وإنما من باب المشاركة الفعّالة بإرثها الحضاري ومخيلتها الجماعية.

التوصيات:

1/ الاهتمام بالعلم بحيث يكون عنصرا مكونا للذهنية العربية، وللتفكير والسلوك اليومي.
2/ الدفاع عن مكانة الأدب في المجتمع بوصفه أهم ركائز الثقافة العربية، و مفتاح كل تطور سياسي واجتماعي واقتصادي، لتحقيق التنمية المستدامة في الوطن العربي. والاهتمام بالفنون إبداعا، وصناعة، وترويجًا، ورسم سياسات للثقافة العربية. فبدون تطور أدبي وثقافي لا يصح الحديث عن تطور حقيقي للإنسان والمجتمع.
3/ ضرورة إدراج أدب الخيال العلمي ليكون أحد المقررات الدراسية في المدارس والجامعات العربية، ودعمه بكافة الطرق.
4/ العمل على إشهار مثل هذا النوع من الروايات ونشره، بالتضافر مع الانتاج السينمائي، الفنون السينمائية.
5/ دعم روايات الخيال العلمي تمكينه من قِبَل (النقد الأدبي، المؤسسات االأكاديمية).

6/ التعامل مع روايات الخيال العلمي، انطلاقًا من تشكيلاتها وطرائق التعبير(من داخل النص)، وليس من خلال النقد المعياري، الذي يحلل النصوص، وهو يحمل أحكاما مسبقة.

7/ التعويل على النقد الثقافي بوصفه مدخلاً لدراسة النصوص الأدبية، لقدرته على اكتناه دور الأدب في الحقل الثقافي.

المصادروالمراجع

أولاً: الكتب العربية

- الهارش، إحسان عبدالله محمد، **نحو تفعيل التنمية الثقافية لمواكبة التحولات التنموية المستدامة – دولة الإمارات العربية المتحدة نموذجًا**، مركز جيل البحث العلمي، عدد 46. 2018م.
- البقالي، أحمد عبدالسلام، **الطوفان الأزرق**، الدار التونسية للنشر، طبعة 2، 1986م.
- جميلة قادم، **الصناعات الثقافية والابداعية**: سبل جديدة للتنمية، أبحاث المؤتمر الدولي الأول التراث الثقافي بالبلدان المغاربية – **القيم المجتمعية والاستثمار التنموي**، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكادير، 2022 م.
- حمداوي، جميل، **المقاربة الثقافية أساس التنمية والحكامة الجيدة**، مؤسسة هنداوي للدراسات والنشر، ط1، 2015 م.
- سمر الديوب، **مجاز العلم: دراسات في أدب الخيال العلمي**، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق 2016م.
- موسى، صبري، **السيد من حقل السبانخ** رواية عن المستقبل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 1، القاهرة 1987 م.
- الغذامي، عبد الله، **المشاكلة والاختلاف. قراءة في النظرية النقدية العربية وبحث في الشبيه المختلف**. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء 1994 م.
- الأحمر، فيصل (تحرير)، **خرائط العوالم الممكنة في الاقتراب من الخيال العلمي العربي**، دار فضاءات للنشر والتوزيع، ط1،عمان 2019م.
- برادة، محمد:

  - **تخييل الذات والتاريخ والمجتمع قراءة في روايات عربية**، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ط 1، نوفمبر 2017م.
  - **الرواية ذاكرة مفتوحة**، آفاق للنشر والتوزيع، ط1، 2008 م.

ثانيًا: الكتب المترجمة

- باترك كاباندا، **الثورة الإبداعية للأمم: هل تستطيع الفنون أن تدفع التنمية إلى الأمام**، ترجمة شاكر عبدالحميد، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، عدد 496، الكويت، يوليو 2022م.
- ديفيد سيد، **مقدمة قصيرة جدا في الخيال العلمي**، ترجمة نيفين عبدالرؤوف، مراجعة: هبة عبدالمولى أحمد، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ط1، 2016م.
- ديفيد وورد (تحرير)، **الوجود والزمان والسرد: فلسفة بول ريكو**، ترجمة وتقديم: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، ط1، 1999م.
- فالينيا أيفاشيفا، **الثورة التكنولوجية والأدب**، ترجمة: عبدالحميد سالم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1985 م.
- م. كيث بوكر، آن ماري توماس، **المرجع في روايات الخيال العلمي**، ترجمة: عاطف يوسف محمود، المركز القومي للترجمة، عدد 1557، ط1، القاهرة 2010 م.

ثالثًا: المجلات والدوريات

- أحمد زايد، كيف تكون الاستدامة في الثقافة؟ **جريدة الأهرام**،26 يناير 2019م.
- جاك غوامار، في سبيل تعريف لأدب الخيال العلمي، ترجمة إياس حسن، **مجلة الآداب العالمية**، عدد138، إبريل 2009 م. جون هنتنجتون، أدب الخيال العلمي والمستقبل، ترجمة حسن حسين شكري، مجلة القاهرة، عدد 65، نوفمبر 1986 م.
- ضياء الدين زاهر، الدلالة المستقبلية والاجتماعية للخيال العلمي، **مجلة مستقبل التربية العربية**، المركز العربي للتعليم والتربية، مجلد 8،عدد 25، أبريل 2002م.
- عمار على حسن، الخيال السياسي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، **سلسلة عالم المعرفة**، الكويت، عدد 453، أكتوبر 2017م.
- قرم جورج: التنمية البشرية المستدامة والاقتصاد الكلي، **سلسلة دراسات التنمية البشرية**، العدد 6، بيروت، لبنان، 1997م
- كوبيتي حفصة، أهمية الثقافة في تحقيق أهداف التنمية المستدامة، **مجلة الأسواق المالية**، الجزائر، مجلد 8، عدد 2، نوفمبر 2021 م.
- كوثر عياد، أدب الخيال العلمي في العالم العربي، **مجلة الموقف العربي**، سوريا، عدد 530، 2015م.

- محمد سيد سليمان العبد، الخيال العلمي: استراتيجية سردية **مجلة فصول**، عدد 71، 2007م.
- مدحت الجيار، جدلية الحداثة والمعاصرة في روايات الخيال العلمي، **مجلة فصول**، عدد 4، سبتمبر 1984م.مراد بوزكور، التأويل والتفكيك عند أمبرتو إيكو بين فعل القراءة وفعالية القارئ، **مجلة الخطاب**، عدد 23، 2016م.
- ملاي مروان العلوي، العوالم الممكنة: مدخل إلى تأويل النص، **مجلة مدارات في اللغة والأدب**، العدد الثالث، الجزائر، أوت 2019 م.
- نعيم عطية، أدب الخيال العلمي، **مجلة الفيصل السعودية**، عدد 41،1980م.